

شهادة الحسين(ع) بعيون مسيحية

<"xml encoding="UTF-8?>



زارني في المنام، لم أرها شخصياً ولكنني رأيت نفسي اصلی في مقام كبير وواسع، توقعت بدون أن أسأل .. إنه مقام السيدة زينب.

لم أكن من الذين يعرفون عنها، ولم أكن قد قرأت سيرتها بعد، بل أني أكاد أجزم أنني سمعت باسمها لماماً..
فلماذا أرى نفسي أصلی هنالك لو لم تكن دعوة لي للزيارة؟

إذاً إنها دعوة للزيارة قررت أن إليها... فكان القرار، وكانت الزيارة التي تأخر حصولها أسبوعين بسبب مرض ألم بصديقي خلال الأسبوع الأول، وثلج غطى منطقة ضهر البيدر في الأسبوع الثاني.. لكن الاصرار جعل حصولها ممكناً في الأسبوع الثالث.

من مقام ودير القديس بولس الى مقام السيدة زينب انطلقت بنا السيارة... إنها المرة الاولى التي أزور بها مقام السيدة. كنت اتشوق للزيارة، وأسئلة تضج في رأسي: كيف سيكون؟ هل هو مقام صغير؟ هل يسمحون لنا بالدخول؟

توقف سائق التاكسي أمام المقام، وقال : هذا هو مقام السيدة زينب.... مقام شاسع مهيب، مأدنة مطعمة بالفسيفساء، وقبة مذهبة ، انه مقام السيدة زينب في أحد الاحياء الفقيرة في ضواحي دمشق.

ترجلنا من السيارة وتوجهنا الى الباب الرئيسي نحو الدخول ولكن... سيدتان مكشوفتي الرأس لا يمكن لهما ان يدخلان بدون وضع "الخمار" على الرأس!! ولما لا!! بدون تردد لبسنا العباءة السوداء ودخلنا.

خطوات قليلة وأصبحنا في الداخل، تجد رجالاً ونساءً يصلون، يلطمون وي بكون... بدون تفكير أو مشاورات جانبية، انطلقنا مدفوعتين بقوة الايمان، ورهبة المكان وسحر الصلاة، ننضم الى المصليين ونقوم بنفس الحركات التي يقومون بها.. نصلي، ثم ندبر وجوهنا الى القبلة لنصلی قليلاً ثم نعود لنستدبر.. كانت لحظات رائعة، تفيض ايماناً وتقوى وخشنوا بالرغم من أننا لم نكن نفهم شيئاً مما كانوا يقولونه.. لقد كانوا مجموعة من الايرانيين والایرانیات يصلون باللغة "الفارسية".

انتفت الحواجز الدينية ومعها سقطت الحواجز اللغوية، كان الجو مفعماً بالايمان والتقوى والخشوع، شعرت بقوة

وجود الله في أرجاء المكان، رحت أتمتنم بدون أن أعي: "ابانا الذي في السموات ليتقدس اسمك...". هكذا تعلمت منذ الصغر أن أصلي لله، وها أنا في حضرته بحاجة الى أن أصلي .

... لم يعد للتعابير أي فرق، لم تعد اللغة حاجزاً، فالصلة لله اذا نبعت من القلب قادرة ان تخترق اللغات والحواجز والطقوس.

انها مسألة انسانية الابعاد، وجدانية الروح، مليئة بالمؤثرات. انها تمنح الفكر حرارته وحيويته، وتخرجه من حالة فكرية صرف ليدخل حالة ايمانية غير مفهومة ولا مدركة، حالة قريبة من الشعور اللادراكي، منفتحة على الوجдан، عصية على الاختراق..

صورة المسيح المصلوب، وصورة الحسين الشهيد... ارتسمتا أمامي. ومع البكاء والنحيب في السيدة زينب، تذكرت ترتيلة مسيحية تتردد في يوم الجمعة العظيمة، ذكرى صلب السيد المسيح على ايدي اليهود، ترنيمة تقال عن السيدة العذراء مريم التي تبكي وتتوح على ابنها المصلوب: "انا الام الحزينة وما من يعزيها..."

في هذه الذكرى، رأيت الانبياء يعيدون التاريخ ، انها الالم نفسها، انها الجرأة نفسها. لقد واجه الانبياء الضلال والطغيان بكل قوة، واجهوا الالم بكل فرح روحي، لقد قال السيد المسيح وهو يتوجه الى الصليب : "فلتكن مشيئتك يا رب" ، وقال الحسين، "هونَ علٰي ما نزل بنا انه بعين الله".

هي الأجواء الایمانية نفسها ولكن في أوقات مختلفة وثقافات متعددة، يمارسها المؤمنون بالله الواحد ولكن كل على طريقته.

وقفتأتأمل في قضية المسيح والحسين بعيداً عن أجواء الحزن والبكاء والنوح التي تحولت الى تقاليد متنوعة الاشكال، وقفتأستعيد ما سمعته من آيات وأقوال عن قضية استشهاد الحسين من بعض الاصدقاء فتذكرت الشعار الحسيني:

"اني ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي.... لا والله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقر لكم اقرار العبيد" وقارنتها بدخول المسيح الى الهيكل لطرد اللصوص وتجار الهيكل وقوله: "بيت الله بيت صلاة وانتم جعلتموه مغارة لصوص" فوجدت التقارب في المفهوم والصيغة والدعوة الى الاصلاح والى اتباع تعاليم الله.

خاطب الحسين المؤمنين قائلاً: "من قبلني بقبول الحق فالله اولى بالحق" ، كأن الحسين يريد أن يقول للناس- كما فسر سماحة السيد محمد حسين فضل الله-، فكروا في كلماتي وفي مواقفي وظروفاتي، ولا تستغرقوا في ذاتي، ولكن استغرقوا في الخط الذي اطرحه عليكم، ومن رد علي ولم يقبلني فانما يكون رافضاً للحق الذي جئت به. وهذا تفسير ما يقوله السيد المسيح: "انا هو الطريق والحق والحياة.. لا أحد يأتي الى الله الا بي".

لقد أتى الانبياء لنصرة المظلومين، لدعوة الناس الى الحق والخير ورفض الذل والهوان. ثار الانبياء ضد الفساد، ضد الظلم، ضد التعسف...

أئتي الانبياء واستشهدوا من أجل الحفاظ على عنفوان الرسالة التي حملوها وعلى عزة الرساليين... وعلى رفض اعطاء شرعية للحاكم الظالم عندما يريد أن يفرض نفسه على المؤمنين، ثاروا على كل ما كان من تقاليد ومعاصٍ باطلة ارتكبت باسم الله واتخذت من سيف المحبة الالهية سيفاً يقطع رقاب الناس ويدمي افئتهم ويحني رقابهم ذلاً وخطبوا.

ثار المسيح، وثار الحسين.. انها ثورة على الباطل، ثورة على الظلم، ثورة على كل من يحاول استعباد الناس وسلبهم حرية ضميرهم وايمانهم بالحق والخير.

في ذكرى الحسين، وفي زمن الصوم المسيحي المبارك ، فلتكن الثورة على الذل والفساد والهوان طريقنا، نحن المؤمنون من كافة الطوائف في لبنان. انها الطريق الى الله.. انها الطريق الى الحق والحياة.